المبحث الثامن

المذهب الإمامى ورؤية أهل السُّنة له

● من هم الشيعة ؟

عرفنا أشياء عن الشيعة فيما سلف من هذه الدراسة ولكننا لا نزال نحتاج إلى المزيد من المعرفة بهم . فنحن أهل السُّنة ، وخصوصاً فى البلاد التى لا توجد فيها أقليات شيعية ، لا نكاد نعرف عن الشيعة إلا القليل . فأريد أن أضع المعالم الأساسية للمذهب الإمامى الاثنا عشرى خاصة ، أمام أنظار المسلمين السُّنة ، ومعها أكبر قدر ممكن من المعرفة بعناصر المذهب وجزئياته . وسوف ألتزم ، كما أفعل دائماً ، بالحق ، والموضوعية بقدر ما أستطيع ، وبالله تعالى التوفيق .

● أصل لفظ « شيعة »

يقول السيد محمد الموسوى الشيرازى إن :« رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله هو الواضع لكلمة شيعة علي » على عدد من أصحابه الكرام كسلمان وعماد وأبى ذر وغيرهم من أفضل الصحابة المقربين والمؤمنين المكرمين »[١] غير أنه لم يقدم الدليل الذى يثبت ذلك .

ـ ولفظ شيعة لفظ عربى ، وقد ورد فى القرآن الكريم عشر مرات بصيغ مختلفة . وهو يعنى : الفرقة والجماعة ، والأتباع والأنصار .[٢]

● تعريف الشهرستانى

ويعرِّف الشهرستانى الشيعة فيقول :«الشيعة هم الذين شايعوا عليًّا رضى الله عنه على الخصوص ، وقالوا بإمامته وخلافته نَصّاً ووصيَّة ، إما جليّاً وإما خفياً ،

---

(١) ليالى بيشاور ؛ ص٥٩ (٢) المعجم الوسيط .

واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده ، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره، أو تقية من عنده . وقالوا : ليست الإمامة قضية مصلحية تُناط باختيار العامة وينتصب الإمام بنصبهم ، بل هي قضية أصولية ، وهي ركن الدين لا يجوز للرسل عليهم السلام إغفاله وإهماله ، ولا تفويضه إلى العامة وإرساله . ويجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص ، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوباً عن الكبائر والصغائر ، والقول بالتولي والتبرّي قولاً وفعلاً وعقداً ، إلا في حال التقية . (١) والتولّي يعني تأييد الإمام والتبرّي يعني البراءة من مخالفيه وأعدائه .

ثم يعود الشهرستاني ليلقي المزيد من الضوء على التعريف بهذه الفرقة ، فيقول :« هم القائلون بإمامة علي رضى الله عنه بعد النبى عليه السلام ، نَصّاً ظاهراً، وتعييناً صادقاً ، من غير تعريض بالوصف ، بل إشارة إليه بالعين . قالوا : وما كان في الدين والإسلام أمر أهمُّ من تعيين الإمام ، حتى تكون مفارقته الدنيا على فراغ قلب من أمر الأمة ، فإنه إنما بُعث لرفع الخلاف وتقرير الوفاق ، فلا يجوز أن يفارق الأمة ويتركهم هملاً يرى كل واحد منهم رأياً ، ويسلك كل واحد منهم طريقاً لا يوافقه فيه غيره ، بل يجب أن يعين شخصاً هو المرجوع إليه ، وينص على واحد هو الموثوق به والمعول عليه . وقد عَيَّن عليًا رضى الله عنه ، في مواضع تعريضًا وفي مواضع تصريحاً»(٢) والتصريح حدث يوم « غَديرخُم » وأحاديث أخرى ووقائع فسروها بأنها وصية لعلي بالخلافة .

ـ واستناداً إلى هذا استجاز بعض الشيعة لأنفسهم الطعن في أبى بكر وعمر وعثمان وسائر الصحابة الذين أيدوا أبا بكر وعمر ، وكفروهم ، ووصفوهم بالظلم والجور وبأشنع الموبقات ! لكن أئمة الشيعة ـ وخصوصاً علي والحسن والحسين والباقر والصادق والسجاد والكاظم ، تبرأوا من أولئك الأتباع وأدانوا سلوكهم المشين .

ـ ويعقب الشهرستاني قائلاً « كيف يستجيز ذُودين الطعن فيهم ونسبة الكفر إليهم ؟ وقد قال رسول الله ﷺ :« عشرة من أصحابى في الجنة :أبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وسعيد بن زيد وعبد الرحمن ابن عوف وأبو عبيدة بن الجراح ؟» (٣)

---

(١) الملل والنحل ؛ جـ ١ ص١٤٦ (٢) نفسه ؛ جـ ١ ص ١٦٢ (٣) نفسه ؛ ١٦٣

ـ ويرد ابن تيمية على سباب الشيعة بقوله إنه إذا صح موقفهم لزم أن تكون هذه الأمة شر الأمم ، ولا أن يكون أولها خيرها ! وَلأَنَّا نحن نعلم أن المتأخرين ليسوا مثل الصحابة ، فإن كان أولئك ظالمين مصرِّين على الظلم ، فالأمة كلها ظالمة ! فليست خير الأمم »(١)

ـ وهذه اللازمة تناقض شهادة القرآن لأمتنا بالخيرية ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[آل عمران : ١١٠]

● فرق الشيعة

واختلف الشيعة وتفرقوا إلى فرق عديدة : الكَيسانية (أربع فرق) والزَّيدية (ثلاث فرق) والإمامية ـ التى هى موضوع دراستنا المقارنة هذه ، (ست فرق) ، والغالية (عشر فرق) (٢) . وعدَّهم « الإيجى » اثنتان وعشرين فرقة ، وأصولهم ثلاث فرق : الغلاة (وهم ثمانى عشرة فرقة) والزيدية ثلاث فرق (والإمامية) (٣)

وصنَّفهم الفخر الرازى تصنيفاً مختلفاً قليلاً عن تصنيف الشهرستانى والإيجى، فقال :« الشيعة جنس تحته أربعة أنواع :الإمامية ، والكيسانية ، والزيدية ، والغلاة الإمامية . فالإمامية استقر رأيهم على أن الإمام بعد الرسول عليه الصلاة والسلام علي بن أبى طالب ، ثم ولده الحسن ، ثم أخوه الحسين ، ثم ابنه علي ، ثم ابنه محمد الباقر ، ثم ابنه جعفر الصادق ، ثم ابنه موسى الكاظم ، ثم ابنه على الرضا ، ثم ابنه محمد المتقي ، ثم علي التقى ، ثم ابنه الحسن الزكى ، ثم ابنه محمد ـ وهو القائم المنتظر ، رضوان الله عليهم أجمعين . وقد كان لهم فى هذه المراتب اختلافات . فيقول القائلون بالنص الجلى على عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه . واتفقوا على أنه متعين للإمامة . وقالت الإمامية الأمر بعد النبى صلى الله عليه وسلم وآله إلى عليّ بن أبى طالب ، يفعل فى الإمامة ما أحب ، إن شاء جعلها لنفسه ، وإن شاء وَلاّها غَيَره »(٤)

---

(١) منهاج السنة ؛ جـ ٤ ص ٢٠٤ (٢) انظر البيان فى الصفحة التالية

(٣) الإيجى؛ المواقف ؛ ص٤١٨

(٤) فخر الدين محمد بن عمر الخطيب الرازى، محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين، ص٢٤١

بيان فرق الشيعة

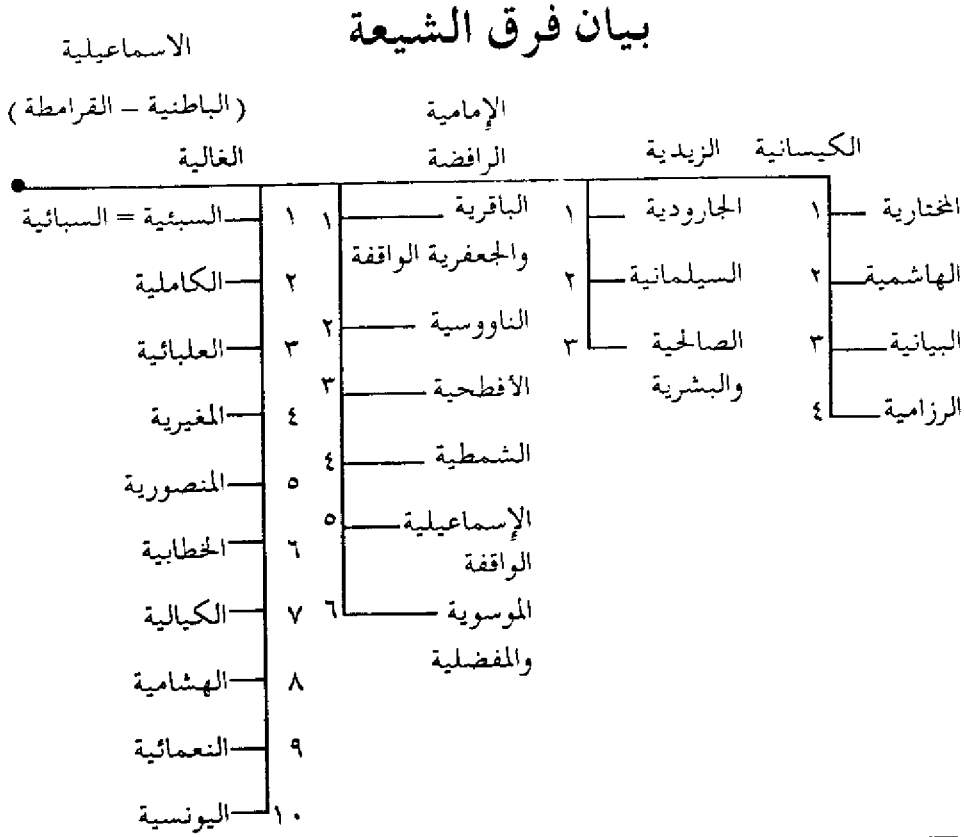

ملاحظات :

١– هذا هو تصنيف الشهرستاني في الملل والنحل .

٢– ٤ + ٣ + ٦ + ١٠ + ١ = ٢٤ = عدد فرق الشيعة

٣– عدد أصناف الشيعة ٥ ، وهم : الكيسانية ، والزيدية ، والإمامية الروافض والغالية ، والإسماعيلية (وهم الباطنية والقرامطة)

٤– أما عند الأشعري فالتصنيف يختلف .

٥– فالشيعة عند الأشعري ٣ أصناف ، وليس ٥ ، وهم : الغالية ، والإمامية (الروافض) ، والزيدية

٦– والأشعري يُدخل الكيسانية ضمن الإمامية (الرافضة) ؛ والظاهر أنه يُدخل الإسماعيلية (الباطنية أو القرامطة) ضمن الإمامية .

٧– والإمامية (الرافضة) عند الأشعري ٢٤ فرقة (وليس ٦ كما عند الشهرستاني)

٨– والزيدية عند الأشعري ٦ فرق (لا ثلاثة كما عند الشهرستاني)

٩– الإمامية ، والرافضة ، اسمان لفرقة واحدة بعينها .

١٠– الإسماعيلية ، والباطنية ، والقرامطة ، والتعليمية ، والملحدة ، كلها أسماء لفرقة واحدة بعينها .

١١– الغالية عند الأشعري ١٥ فرقة (لا عشرة كما عند الشهرستاني)

وقال الرازى :« إن الإمامية يؤمنون بأنه يجب على الله تعالى نَصْبَ الإمام ليكون لطفاً لنا فى فعل الواجبات العقلية وفى ترك القبائح العقلية ، وليكون أيضاً حافظاً للشريعة ومبيناً لها »(١) . وقال الرازى :« إن الاثنا عشرية والشيعة ، قالوا : « إن وجوب العصمة شرط لصحة الإمامة » ثم يعلق على هذا بقوله : إن الدليل أثبت صحة إمامة أبى بكر ، مع أنه لم يكن معصوماً . (٢)

ويعترض الرازى على قول الإمامية إن النبى صلى الله عليه وسلم وآله نَصَّ على إمامة علي ، لأن :« النص على هذه الخلافة رافعة عظيمة . والوقائع العظيمة يجب اشتهارها جداً . فلو حصلت هذه الشهرة لعرفها المخالف والموافق . وحيث لم يصل خبر هذا النص إلى أحد من الفقهاء والمحدثين ، علمنا أنه كذب » (٣) لكن الشيعة تؤكد وصوله .

ويقول البغدادى :« وجميع فرق الغُلاة منهم (يعنى من الشيعة) خارجون عن فرق الإسلام . فأما الزيدية وفرق الإمامية فمعدودون فى فرق الأمة »(٤) والشيعة أنفسهم يكفرون الغلاة .

ويقول الإمام النووى شارح صحيح الإمام مسلم رضى الله عنه :« واعلم أن مذهب أهل الحق أنه لا يكفَّر أحدٌ من أهل القبلة بذنب ، و لايكفر أهل الأهواء والبدع، وأن من جحد ما يُعلم من دين الإسلام ضرورة حُكم بردَّته وكفره ، إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام ، أونَشأ ببادية بعيدة ونحوه ، ممن يخفى عليه ، فَيُعَرَّف ذلك ، فإن استمر حُكم بكفره . وكذا حكم كل من استحل الزنا أو الخمر أو القتل أو غير ذلك من المحرمات التى يُعلم تحريمها ضرورة »(٥)

فالإمامية الاثنا عشرية الذين ندرس مذهبهم هنا مسلمون ، ولم يقل أحد من أهل السُّنة غير ذلك .

---

(١) فخر الدين محمد بن عمرالخطيب الرازى ؛ أصول الدين ؛ ص١٣٣ - ١٣٤
(٢) نفسه ؛ ص١٣٦ (٣) نفسه ؛ ١٣٧ (٤) الفرق بين الفرق ؛ ص٢١
(٥) صحيح مسلم بشرح النووى ؛ جـ ١ ص١٥٠ - الهامش

● لماذا سموا روافض ؟

وقد سُمّوا « روافض » أو « رافضة » لرفضهم إمامة أبى بكر وعمر . وهم مجمعون على أن النبى صلى الله عليه وسلم وآله نَصَّ على استخلاف عليّ بن أبى طالب باسمه ، وأظهر ذلك وأعلنه ، وأن أكثر الصحابة ضلوا بتركهم الاقتداء به بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم وآله ، وأن الإمامة لا تكون إلا بنص وتوقيف ، وأنها قرابة ، وأنه جائز للإمام فى حال التقيّة أن يقول : إنه ليس بإمام . لكن الشيعة « الكاملية » وهم أصحاب أبى كامل « أكفَرُوا الناس بترك الاقتداء به ، وأكفروا علياً بترك الطلب » وانقسم الكاملية أربعة وعشرين فرقة ! [1] وهذه فوضى مذهبية واعتقادية وغُلو أفضى إلى تكفير بعضهم بعضاً .

لكن فخر الدين الرازى يقول إنهم سُموا روافض :« لأن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبى طالب رضى الله عنه خرج على هشام بن عبد الملك ، فَطَعَنَ عسكرُه فى أبى بكر ، فمنعهم من ذلك ، فرفضوه ، ولم يبق معه إلا مائتا فارس ، فقال لهم : رفضمتونى ؟ قالوا : نعم . فبقى عليهم هذا الاسم . وهم طوائف : الزيدية والإمامية والكيسانية »[2]

وقد زوِّرت على رسول الله ﷺ أحاديث تقول : إن الرافضة مشركون ، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم فإنهم مشركون »![3]

● الإمامية مسلمون

والحق أن الاثنا عشرية مسلمون فى اعتقاد أهل السُّنة كما سبق أن بينت . ورفض إمامة أبى بكر لا يكفرهم ، لأنهم متأولون . وكذلك خلاف زيد بن علي ابن الحسين مع جنوده لا يكفر بمعايير التكفير عند أهل السُّنة . فلم يبق إلا أن نقول إن « الرفض » صار تهمة طائشة وجهت للمخالفين من الشيعة ، وجهها بعض أهل السُّنة بمعان متباينة ، ولكن كبار العلماء السنيين لم يستخدموها بمعنى رفض

---

(١) مقالات الإسلاميين ؛ ص٨٨ - ٨٩

(٢) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ؛ ص٧٧

(٣) ابن الجوزى ؛ العلل المتناهية ؛ ج١ ص١٥٩

الإسلام . وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ينقد الإمامية بقوة ولكنه ينصف بعضهم وينفى عنهم ضلال غيرهم فيقول :« وقول القائل إن الرافضة تفعل كذا المراد به بعض الرافضة »[1] وفى موضع آخر يقول : « **إن الإمامية ـ مع فرط جهلهم وضلالهم ـ فيهم خَلْق مسلمون ظاهراً وباطناً ، ليسوا زنادقة منافقين ، لكنهم جهلوا وضلوا واتبعوا أهواءهم** »[2] ويلاحظ الشافعى الذى عاش قبل ابن تيمية بستمائة سنة انتشار البدع بين الشيعة حتى قال :« ما كلمتُ رجلاً فى بدعة إلا رجلاً كان يتشيع »[3] ومعلوم أن الشافعى كان محباً لآل البيت حتى اتهمه هارون الرشيد بموالاة الشيعة ضد العباسيين، وأفلت الشافعى من قبضة الرشيد بذكاء إذْ قال له :أأَدَعُ من يقول إنى ابن عمه وأصير إلى من يقول إنى عبده؟! »[4]

ولم يكن بنو العباس يعطون لأبناء عمومتهم اعتباراً ، وإلا لما صنع هارون بالشافعى ما صنع من استدعاء وترويع واتهام ، دون اعتبار لقرشيته أو لمكانته العلمية الكبرى . ولم يكن الشيعة يقولون عن أمثال الشافعى إنهم عبيدنا . فكانت مقولة الشافعى « تقيّة »!

● جوهر التشيع ، مدرسة آل البيت

وصفوة القول إذن إن ما يميز الشيعة كفرقة إسلامية مختلفة عن الفرق الأخرى **هو اعتقادهم بأن علي بن أبى طالب هو أفضل الناس بعد النبى ، وأنه أحق بإمامة المسلمين من أبى بكر وعمر وعثمان ، وولده من بعده . فمن آمن بهذا فهو شيعى حتى لو اختلف معهم فى المسائل الأخرى** .[5] وهكذا وجدنا فرق الشيعة تختلف فى أشياء عديدة لكنها تتفق فى أفضلية علي بن أبى طالب . مثلاً فى اليوم التالى لقدوم المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر ، وكان المصريون أهل سُنَّة ، كتب إلى المشايخ يقول :« خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله

---

(١) منهاج السنة النبوية ؛ جـ ١ ص٨ (٢) نفسه ؛ جـ ١ ص ٢٢٨ – ٢٢٩
(٣) آداب الشافعى ومناقبه ؛ ص١٨٦ (ولد الشافعى سنة ١٥٠ ؛ ومات سنة ٢٠٤هـ)
(٤) نفسه ؛ ص٧٨ ؛ الهامش (٥) الشيعة فى التاريخ ؛ص١٣

أمير المؤمنين علي بن أبى طالب عليه السلام »[1] وظل الفاطميون يحاولون نشر هذه العقيدة فى مصر حوالى قرنين ونصف (من سنة ٣٢٢ـ إلى سنة ٥٦٧هـ) حين انتهت دولتهم بانتصار صلاح الدين الأيوبى . ومن المدهش أن الشعب المصرى ظل محافظاً على مذهبه السُّنى ، على الرغم من حبه الشديد لآل بيت النبى الكريم صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

● الشيعة مدرسة آل البيت

ويصف أحد الكتاب المعاصرين الشيعة فيقول :«**إن التشيع هو المدرسة التى تبنت زعامة أهل البيت عليهم السلام فكرياً وسياسياً . ومن زاوية تاريخية ، هو : الحركة التى ناضلت من أجل هذه الزعامة بوصفها القيادة الإسلامية الصادقة والمستوعبة ، وبوصف أهل البيت عليهم السلام الممثلين الحقيقيين للإسلام**»[2]

وهذا التعريف غير دقيق ، لأن كثيراً من أتباع الفرق الأخرى تتبنى زعامة علي بن أبى طالب والحسن والحسين ، ويتَبنَّون أفكارهم لأنها أفكار إسلامية . فمنبع الفكر عند جميع الفرق واحد ، وهو الكتاب والسُّنَّة . ومعلوم أن معظم أهل السُّنة ـ مثلاً ـ يوالون علي بن أبى طالب فى خلافه مع معاوية . ولم يحدث قط أن اعتُبر معاوية من الخلفاء الراشدين عند أهل السُّنة ، وقد أوردْت قول الشافعى الذى يضعه ضمن المبتزين . والمؤرخون من أهل السُّنة يصفون معاوية بأنه مؤسس الملك العضوض . ومن مظاهر الولاء لآل البيت بين أهل السُّنة العناية الكبرى بتراث أمير المؤمنين علي بن أبى طالب ، فأرَّخ له المؤرخون بموضوعية مشهودة وأنصفوه فى نزاعه مع معاوية ، وحقق الإمام محمد عبده كتاب «نهج البلاغة»وعلق عليه بما يكفل للمسلمين الانتفاع بما يحويه من الحكم والمبادئ .

---

(١) المقريزى ؛ اتعاظ الحنفا ؛ جـ ١ ص١٣٥

(٢) الشيعة فى التاريخ ؛ ص ٤٥ – ٤٦

● العداء للشيخين

ومن المؤسف أن نقول إن من سمات المذهب الشيعى العداء للشيخين وللصحابة عامة عدا الذين أيدوا علياً ! فأهل السُّنة يوالون زعماء الشيعة ، ومذهب أهل السُّنة يتسم بهذه السِّمة ، لكن المذهب الشيعى يتسم - على النقيض من ذلك - بالرفض الشديد والعنيف للشيخين ولعثمان ولسائر الصحابة . ولذلك لا يجد أهل السُّنة صعوبة فى التقرب إلى الشيعة ومشاطرتهم الحب والولاء لآل البيت، لكن الشيعة يجدون صعوبة كبيرة فى مشاركة أهل السُّنة الحب والتقدير للراشدين وسائر الصحابة الكرام رضى الله عنهم . وتبعاً لهذا الفرق الحاسم ، لا يجد السُّنى غضاضة فى الأخذ عن أمير المؤمنين علي بن أبى طالب وعن ابن عباس، وعن أئمة الشيعة ، إذا ثبت أنهم قد صدر عنهم القول أو الفعل ، كما يأخذون عن أبى بكر وعمر وعثمان وغيرهم من الروايات والأحاديث والاجتهادات بالشروط نفسها . لكن الشيعى يجد صعوبة كبرى تحول بينه وبين روايات أهل السنة . بل الشيعى يجد من العلماء الشيعة من يحرِّم عليه تلقى روايات المخالفين ! فقط علي وبنوه وأهل البيت وبنوهاشم وأبو ذرالغفارى وعمار بن ياسر ، والمقداد ، والزبير بن العوام ، وحُذَيْفَة بن اليمان والبراء بن عازب ، وأُبَيٍّ بن كعب ، هم الذين تُقبل رواياتهم وأخبارهم ! وعلى دعاة التقريب والإصلاح أن يجدوا حلاً لهذه المشكلة .

ويقرر شيخ الإسلام ابن تيمية **أن الشيعة لم يأخذوا مذهبهم عن آل البيت كما يقولون ، بل هم مخالفون لعلي رضى الله عنه وأئمة أهل البيت فى جميع أصولهم التى فارقوا فيها أهل السنة والجماعة**: توحيدهم ، وعدلهم ، وإمامتهم! فإن الثابت عن علي رضى الله عنه وأئمة أهل البيت : من إثبات الصفات لله ، وإثبات القدر ، وإثبات خلافة الخلفاء الثلاثة ، وإثبات فضيلة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما وغير ذلك من المسائل ، كلها يناقض مذهب الرافضة . والنقل بذلك ثابت مستفيض فى كتب أهل العلم بحيث أن معرفة المنقول فى هذا الباب عن أئمة أهل البيت يوجب علماً ضرورياً بأن الرافضة مخالفون لهم لا موافقون »[1]

---

(١) مناهج السُّنة النبوية ؛ جـ ٢ ص١١٦

● **من هم أهل البيت ؟**

الشيعة ـ كما ذكرت تواً ـ يُعرَّفون بأنهم أتباع آل البيت. فمن هم آل البيت؟

جاءت آيات عديدة فى سورة الأحزاب تتحدث عن أهل البيت . ونحن نستند إليها للجواب عن السؤال المطروح .

ـ قال تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً** ﴾ [الأحزاب: ٢٨]

ـ وقال عز وجل ﴿ **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا** ﴾ [الأحزاب: ٣٠]

ـ وقال عز من قائل ﴿ **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا * وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا** ﴾ [الأحزاب: ٣٢ـ٣٤]

ومن الجلي أن الخطاب فى هذه الآيات ، من أوامر ونواهٍ ، ووعد ووعيد ، مُوَجَّهٌ إلى نساء النبى رضى الله عنهن . ويُبيِّن لهن التنزيل أن الله تعالى يريد أن يُذهب عنهن الرجس وأن يطهرهن ، إذا عملوا بهذه الأوامر وانتهوا عن تلك النواهى .

ـ لكن المفسرين الشيعة يُخرجون نساء النبى من زُمرة أهل البيت ، لكيلا تشملهم إرادة إذهاب الرجس والتطهير الإلهى . والمقصود من وراء هذا التفسير هو إبعاد أم المؤمنين عائشة بالذات ! وسند المفسر الشيعى هو استخدام القرآن صيغة المذكر فى لفظى « عنكم » « ويطهركم » فالآيات كلها تتحدث عن نساء النبى ، وتستخدم المؤنث حتى آخر آية ، مع عبارة واحدة استخدم فيها المذكر وسط الآيات التى نادت النساء واستخدمت المؤنث أكثر من عشرين مرة ! لكن المفسر الشيعى يصر على أن نساء النبى لَسْنَ من أهل البيت ، وإنما أهل البيت هم فقط فاطمة وعلي والحسن والحسين .

ـ وأما المفسر السُّنى ـ القرطبى ـ رحمه الله فيقول :«**والذى يظهر من الآية أنها عامة فى جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم** وإنما قال ﴿ **وَيُطَهِّرَكُمْ** ﴾ ولم يقل «ويطهركن» لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، وعلياً وحسناً وحسيناً كانوا فيهم ، وإذا جتمع المذكر والمؤنث غُلِّبَ المذكر ، فَاقْتضت الآية أن الزوجات من أهل البيت ، لأن الآية فيهن ، والمخاطبة لهن ، يدل عليه سياق الكلام»(١)

والقرآن الكريم يقول للنبى ﴿ **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا** ﴾ [طه : ١٣٢] وفى العربية الأهل هم الأقارب والعشيرة ، والزوجة . وأهل الدار سكانها . (٢) وبيت الزوج فى لغة القرآن الكريم هو بيت الزوجة ، فيقول سبحانه ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ** ﴾ [الطلاق : ١] وفى مرض النبى ﷺ الذى مات فيه استأذن نساءه أن يُمرَّضْ «فى بيت» عائشة . (٣)

● آل البيت فى السُّنة

وفى خبر عن زيد بن أرقم قال :«قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله بماءٍ يُدْعَى «خُمًّا»، بين مكة والمدينة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ووعظ وذَكَّر ، ثم قال :«أما بعد ، ألاَ أيها الناس ! فإنما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيب ، وإنى تارك فيكم ثَقَلَيْن أولهما كتاب الله ، فيه الهدى والنور ، فتمَسَّكوا به وخذوا به» فحث عليه ورغَّب فيه ثم قال :«**وأهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى**» **قال حصين : يا زيد ، مَنْ أهل بيته ؟ أليست نساؤه من أهل بيته ؟ قال : بلى ، إن نساءه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته (أيضاً) الذين ذَكَرَهم مَنْ حُرموا من الصدقة بعده : قال : ومن هم ؟ قال : آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل العباس**»(٤)

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، المجلد رقم٦ـ طبعة الشعب ، ص٥٢٦٤ – ٥٢٦٦

(٢) راجع معاجم اللغة .

(٣) سيرة ابن هشام ؛ جـ ٤ ص٦٤٣

(٤) البيهقى ؛ السنن الكبرى ؛ جـ ٢ ص١٤٨ـ وأخرجه مسلم .

هنا يبدو مفهوم أهل البيت متسعاً لكثيرين من بنى هاشم ، فضلاً عن نساء النبى رضى الله عنهن . ومن الجلي أن الحدث خلو من ذكرالوصية بالخلافة لعلي أو غيره ، وإنما ركز على القرآن وأهل بيت النبوة .

وتعليقاً على آيات سورة الأحزاب **يقول البيهقى إن الله تعالى قال «عنكم» بلفظ المذكر لأنه أراد دخول غيرهن معهن فى ذلك ، ثم أضاف البيوت إليهن فقال ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾** [الأحزاب : ٣٤] **وقال البيقهى** :«**وفى كتاب الله البيان لما قصدناه فى إطلاق النبى** صلى الله عليه وسلم وآله « الآل » ومراده من ذلك **أزواجه ، أوهُنّ داخلات فيه**»(١)

إذن ، نساء النبى رضى الله عنهن داخلات فى إرادة إذهاب الرجس وإرادة التطهير بحكم نص الآيات . ولكننا إضافة إلى هذا نختلف مع الشيعة فى فهمهم لإرادة إذهاب الرجس وإرادة التطهير . **فنحن نفهم أن حدوث ذلك مرهون بطاعة الأوامر التى وردت فى الآيات والانتهاء عن النواهى التى نهت عنها ، والله تعالى أعلم .**

والآيات واضحة فى الوعد والوعيد . وأهل السُّنة لا يفهمون أن الإرادة الإلهية هنا فى هذه الآية إرادة تكوين ، لأن النبى ﷺ - بُعيْد نزول هذه الآيات - دَعَا علياً وفاطمة والحسن والحسين ، ولَفَّهم فى كِسَاءٍ ، ثم قال :«اللهم هؤلاء أهل بيتى ، اللهم أذْهِب عنهم الرجس» أى أنه عليه الصلاة والسلام أحب أن يدخلهم فى الآية التى خوطب بها الأزواج . وسنرى بعد قليل أن الشيعة تؤمن بعصمة أئمتهم ، وتستند إلى هذه الآية وغيرها . وهذا فرق أساسى بين المذهبين.(٢)

● العصمة

ومن الأركان الأساسية فى المذهب الإمامى الاثنا عشرى القول بعصمة الأئمة الاثنا عشر . فالأئمة الاثنا عشر منصوص عليهم من أمر الله تعالى ،

---

(١) نفسه ؛ ص ١٥٠

(٢) القرطبى ؛ الجامع لأحكام القرآن ؛ تفسير الآية .

إما مباشرة وإما بالواسطة . فالرسول نص على إمامة علي بن أبي طالب في خطبة يوم الغدير، بأمر من الله، والنبي صلى الله عليه وسلم وآله نص على عصمة أهل البيت .

والأمة عاجزة عن تعيين الإمام ، مثلما أنها عاجزة عن تعيين النبي . فالإمامة ليست بيعة وشورى بين المسلمين . **والإمام الذي عيَّنه الله تعالى معصوم عصمة مطلقة عن كل الذنوب والآثام ، قبل البلوغ وبعده !**

ـ «والعصمة منشؤها علم ، وهو ضرب من العلم الذي يمنع صاحبه من الإتيان بما يخالف أوامر الله في السلوك والعمل»(١)

هذه هي العصمة كما يفهمها علماء الشيعة الاثنا عشرية . ويستشهد كاتب آخر بقول الله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ [**النساء : ٥٩**] **فيقول إن** أولي الأمر هم أهل البيت ، وقد اقترنوا بالنبي في وجوب طاعتهم ، فهم :« معصومون من المعصية والزلل ، كالنبي صلى الله عليه وسلم وآله ، حتى اقترنوا به في لزوم الطاعة في الآية :« ولا يجوز أن يوجب الله طاعة أحد على الإطلاق إلا من ثبتت عصمته وعلم أن ظاهره كباطنه، وأُمِنَ منه الغلط والأمر القبيح ، وليس ذلك بحاصل في الأمراء ولا العلماء سواهم »(٢)

هذه النظرية تثير إشكالات عديدة تهدد بهدم المذهب الإمامي من أساسه ذاته .

ـ وأول الإشكالات التعسف في فهم «أولي الأمر» وقصر العبارة على أهل البيت ، في حين أنها تشمل جميع من يتولى الأمور من الآباء والأوصياء و الحكام والقضاة ، بشرط أن تكون الطاعة لهم فيما أحله الله ، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم وآله :« لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » ولو كان تفسير الإمامية صحيحاً ما كان لقوله تعالى ﴿ **فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ** ﴾ [النساء : ٥٩] معنى ، بل كان يقول : فردُّوه إلى الإمام وأولي الأمر »(٣)

---

(١) جواد الكسار ؛بحث في الإمامة ؛ ص١٢٥-١٩٠

(٢) السبحاني ؛ أهل البيت ؛ ص ١٣٦

(٣) القرطبي ؛ تفسير الآية ؛ المجلد الثاني ـ ص١٨٢٩

وليس صحيحاً أن الله تعالى لا يجوز أن يوجب الطاعة إلا لمن ثبتت عصمته. فالشريعة الإسلامية توجب الطاعة للآباء والأمهات والأزواج وكل ولي أمر. ولا أحد من هؤلاء معصوم !

● مذهب أهل الظاهر : الإمام المعصوم هو النبى وحده

ويقول الإمام ابن حزم رحمه الله :«إن عمدة حجة الإمامية أنه لا بد أن يكون إمام معصوم عنده جميع علم الشريعة ، يرجع الناس إليه فى أحكام الدين ليكونوا مما تعبدوا به على يقين» ثم يقول :«هذا لا شك فيه ، وذلك معروف ببراهينه الواضحة وأعلامه المعجزة ، وآياته الباهرة ، وهو : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله إلينا ، تَبْيَانُ دينه الذى أَلْزَمَنَاه إياه ، صلى الله عليه وسلم وآله ، فإن كلامه وعهوده ، وما بَلَّغ من كلام الله تعالى حجة نافذة معصومة من كل آفة إلى من بحضرته ، وإلى من كان فى حياته غائباً عن حضرته ، وإلى كل من يأتى بعد موته إلى يوم القيامة من جن وإنس . قال الله عز وجل ﴿ **اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ** ﴾ [الأعراف :٣] فهذا نص ما قلنا ، وإبطال اتباع أحد دون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وإنما الحاجة إلى فرض الإمامة لينَفُّذَ الإمام عهود الله تعالى الواردة إلينا على من عبد فقط، لا لأن يأتى الناس بما لا يشاؤنه فى معرفة الدين الذى أقام به رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وسلم إذا دُعى إلى التحاكم إلى القرآن أجاب، وأخبر بأن التحاكم إلى القرآن حق . . ولو كان التحاكم إلى القرآن لا يجوز بحضرة الإمام لقال «عليٌّ» حينئذ : كيف تطلبون تحكيم القرآن وأنا الإمام المبلغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله؟ فإن قالوا : إذا مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله فلا بد من إمام يبلغ الدين . قلنا : هذا باطل ودعوى بلا برهان . وقول لا دليل على صحته . وإنما الذى يحتاج إليه أهل الأرض من رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله بيانه وتبليغه فقط، سواء فى ذلك من كان بحضرته ومن غَاب عنه ومن جاء بعده، فالمراد منه عليه السلام : كلام باق أبداً مُبَلَّغ إلى كل من فى الأرض»(١)

---

(١) الفُصل ؛ جـ ٤ ص١٦٠-١٦١

أئمة الشيعة لم يكونوا معصومين : ويقول ابن تيمية رحمه الله :«إن أئمة الشيعة لم يكونوا معصومين . والدليل على ذلك أن علي أبى طالب رضى الله عنه أخطأ حين خطب جويرية بنت أبى جهل ، وأغضب فاطمة الزهراء رضى الله عنها غضباً شديداً ، وأغضب النبى صلى الله عليه وسلم وآله ، حتى أضطرّ« علي » إلى الرجوع عن تلك الخطبة[1] وأخطأت فاطمة حين طلبت خادماً من السَّبْى ولم يكن لها الحق فى ذلك ، فلم يستجب لها النبى . وأخطأ علي حين استباح قتل المسلمين الذين تمردواعليه حتى سأله قيس بن عباد قال :أَخْبِرنا عن مسيرك هذا ، أعهدٌ عهده إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله أم رأى ارتأيته ؟ فقال علي : ما عهد النبى صلى الله عليه وسلم وآله إلىَّ شيئاً ، ولكنه رأى ارتأيته » ويقول ابن تيمية إن علياً استند إلى أحاديث للنبى صلى الله عليه وسلم وآله فى قتال الخوارج لكنه لم يستند إلى شىء فى قتاله فى معركة «الجمل» و «صفين» وَرَأْىُ علي ذاك أُريق به دَمُ أُلوف مؤلفة من المسلمين ، ولم يحصل بقتلهم مصلحة للمسلمين لا فى دينهم ولا فى دنياهم»[2]

والحق أن «رَأْى علي» لم يكن هو المسؤول عن إراقة دماء المسلمين فى تلك المعارك ، بقدر ما كان المسؤول أولئك الذين تمردوا على «علي» الإمام الشرعي الذى اختاره أهل الحل والعقد بالإجماع بُعَيْدَ مقتل عثمان بن عفان ، رضى الله عنهم جميعًا . لكن تلك الأحداث – على الرغم من هذا ـ تثبت أنه لا علي ولا غيره كان معصوماً . وإذا انْتَفَتْ العصمة عن «علي» فقد انتفت عن أهل البيت جميعاً .

● الرسول صلى الله عليه وسلم وآله هو وحده المعصوم .

أما مذهب أهل السُّنة **فلا يقرر العصمة لأحد سوى الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه مع خلافات حول حدود تلك العصمة** . فيقول التفتازانى رحمه الله :«إن الأنبياء معصومون عن الكذب ، خصوصاً فيما يتعلق بأمر التشريع وتبليغ الأحكام وإرشاد الأمة ، أما الكذب عمداً فهم معصومون عنه بالإجماع ،

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٦ ص ٢

(٢) منهاج السنة النبوية ، جـ ٢ ص ١٣٤، ١٥٦-١٥٧، ١٦٩-١٧٠

وأما سهواً فعند الأكثرين . وفى عصمتهم عن سائر الذنوب تفصيل ، وهو أنهم معصومون عن الكفر قبل الوحى وبعده بالإجماع ، وكذا تعمد الكبائر عند الجمهور ، خلافاً للحشوية ، وإنما الخلاف فى امتناعه (أى تعمد الكبائر) بدليل السمع أو العقل ، وأمَّا سهواً فَجوَّزه الأكثرون (أي عمل الكبائر سهواً) . وأما الصغائر فتجوز عمداً عند الجمهور ، خلافاً للجُبائى وأتباعه (المعتزلة) ، وتجوز سهواً بالاتفاق ، إلاّ ما يدل على الخِسَّة ، كسرقة لقمة والتطفيف بحبة . لكن المحققين اشترطوا أن ينبهوا عليه فينتهوا عنه كله بعد الوحي ، وأما قبله فلا دليل على امتناع صدور الكبيرة . وذهبت المعتزلة إلى امتناعها لأنها توجب النَّفرة المانعة عن اتباعهم ، فتفوت مصلحة البعثة . والحق مَنْعُ ما يوجب النفرة ، كَعهْر الأمهات و الفجور والصغائر الدالة على الخسَّة »[1]

ويشرح ابن تيمية هذه العقيدة وما تستلزمه من قواعد وأصول فيقول :« إن أهل السُّنة **جعلوا الرسول الذى بعثه الله إلى الخلق هو إمامهم المعصوم ، عنه يأخذون دينهم ، فالحلال ما حلله والحرام ما حرمه ، والدين ما شرعه . وكل قول يخالف قوله فهو مردود عندهم وإن كان الذى قاله من خيار المسلمين وأعلمهم . وهو مأجور فيه على اجتهاده ، لكنهم لا يعارضون قول الله وقول رسوله بشيء أصلاً ، لا نقلٌ نُقِلَ عن غيره ، ولا رأي رآه غيره . ومَنْ سواه من أهل العلم فإنما هم وسائط فى التبليغ عنه ، إما للفظ حديثه وإما لمعناه .**

فقوم بلَّغوا ما سمعوا منه من قرآن وحديث ، وقوم تفقهوا فى ذلك وعرفوا معناه ، وما تنازعوا فيه ردُّوه إلى الله والرسول . فلهذا لم يجتمع قط أهل الحديث على خلاف قوله فى كلمة واحدة ، والحق لا يخرج عنهم قط . وكل ما اجتمعوا عليه فهو مما جاء به الرسول . وكل من خالفهم من خارجى (يعنى من الخوارج) ورافضى ومعتزلى وجهمى (أتباع الجهم بن صفوان) وغيرهم من أهل البدع ، فإنما

---

(١) شرح العقائد النسفية ،ص١٥٥-١٥٦ ، وأيضاً صحيح مسلم بشرح النووى ، جـ ٣ص٥٣-٥٥ الشرح

يخالف رسول الله ﷺ ، بل مَنْ خالف مذاهبهم فى الشرائع العملية كان مخالفاً للسنة الثابتة »(١)

ـ وعلى هذا يقرر ابن تيمية أن آراء الاثنا عشرية المخالفة لمذهب أهل السُّنة فى العصمة خطأ ، وفى غاية الفساد والبعد عن العقل والدين »(٢)

وعند ابن تيمية :« **القاعدة الكلية فى هذا أن لا نعتقد أن أحداً معصوماً بعد النبى صلى الله عليه وسلم وآله ، بل الخلفاء وغير الخلفاء يجوز عليهم الخطأ .** والذنوب التى تقع منهم قد يتوبون منها ، وقد تُكَفَّر عنهم بحسناتهم الكثيرة ، وقد يُبْتَلُون أيضاً بمصائب يكفِّر الله عنهم بها ، وقد يكفَّر عنهم بغير ذلك »(٣)

● القرآن يؤيد مذهب أهل السُّنَّة

ويؤيد مذهب أهل السُّنة ما وَرَدَ فى بعض آيات القرآن الكريم والحديث الشريف من إشارات إلى أخطاء للنبى صلى الله عليه وسلم وآله . من ذلك ما جاء فى سورة الأحزاب بشأن زواجه عليه الصلاة والسلام من زينب بنت جحش . قال تعالى ﴿ **وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا** ﴾ [الأحزاب :٣٧] فيقول القرطبى إنها كانت أشد آية نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم وآله .(٤)

وفى صدر سورة التحريم يعاتب الله تعالى نبيه الكريم فيقول : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [التحريم :١] وكان عليه الصلاة والسلام قد حرَّم على نفسه شراب العسل بعد أن سمع من بعض أزواجه أنه يخلِّف رائحة غير طيبة .

وفى صدر سورة « عَبَسَ » يعاتبه ربُّه فيقول ﴿ **عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ**

---

(١) منهاج السنة النبوية ؛ جـ ٣ ص ٤١ (٢) نفسه ؛ جـ ١ ص ٢٣٢
(٣) نفسه ؛ جـ ٢ ص ١٧٧ (٤) الجامع لأحكام القرآن ؛ المجلد ٦ ص ٥٢٧١

* وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّىٰ * وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ * كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ [عبس: ١ - ١١] فتشير الآيات إلى إعراض النبى ﷺ عن عبد الله بن أم مكتوم بسبب اهتمامه برجل من عظماء المشركين كان النبى يرجو أن يهديه الله إلى الإسلام .

ويثبت الفقهاء أن النبى صلى الله عليه وسلم وآله سَهَى فى خمسة مواضع فى الصلاة :

١- فقد قام من اثنتين (حديث ابن بحينه)

٢- وسلَّم من اثنتين (حديث ذى اليدين)

٣- وصلّى خمساً (حديث ابن عمر - أخرجه البخارى)

٤- وسلَّم من ثلاث (حديث عمران بن حصين)

٥- وسجد عن الشك (حديث أبى سعيد الخدرى) (١)

ومن الأدلة على صحة موقف أهل السُّنة من العصمة ما أُثر عن النبى صلى الله عليه وسلم وآله من الاستغفار ، فيقول ابن تيمية :« وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم وآله أنه كان يدعو بقوله :« اللهم اغفرلى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى ، وما أنت أعلم به منى . اللهم اغفرلى جدِّى وهزلى وخطئى وعمدى ، وكل ذلك عندى . اللهم اغفرلى ما قدمت وما أخَّرت وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به منى . أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شىء قدير »(٢)

● والأنبياء السابقون

ويذكرنا العلماء بأخطاء الأنبياء السابقين على عهد نبينا صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً ، ابتداءً من أبينا آدم الذى أكل من الشجرة التى نهاه الله عن الأكل منها ، وأكلت معه زوجه ، ثم اعترفا بخطئهما وقالا ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ

---

(١) ابن رشد بداية المجتهد ؛جـ١ ص ٢٤٠

(٢) صحيح البخارى ؛ فتح الباري ؛ كتاب الدعوات ؛ المجلد الثامن ؛ ص ٥٨٤

تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف:٢٣] وأبو الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة السلام الذى لم يذكر الحقيقة حين سأله قومه عمن حطم أصنامهم، وكان هو الذى حطمها ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء:٦٣][1] وهو يعلم أن الله عاصمه ولن يضروه شيئاً. ونوح عليه السلام الذى دَعَا على قومه دعوة ماحقة بقوله ﴿ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح:٢٦]

وموسى عليه السلام الذى قتل الرجل القبطى دفاعاً عن رجل من بنى إسرائيل دون أن يعلم أيهما المخطئ، ولم يحاول فَضَّ المشاجرة، ثم ندم ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [القصص:١٥ - ١٦] ويوسف عليه السلام دَبَّر مكيدة ليتهم إخوته بالسرقة توصلاً إلى احتجاز أخيه إليه؛ ويصف القرآن الكريم تلك المكيدة فيقول ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ [يوسف:٧٠] ولم يكونوا سارقين!

وعظمة الطاعة التى بذلها الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين لا تتحقق مع القول بالعصمة. لأن المعصوم كالملاك كُتبت عليه الطاعات فلا يملك الحيد عما كُتب عليه وقُدر له. أما الأنبياء والأئمة فقد كانوا يصارعون الشهوات ويقهرون نوازع الغواية والشر، ويهزمون الوسواس الخناس، الذى يجرى من ابن آدم مجري الدم، ويرتفعون إلى قمة الطاعة والامتثال لأوامر الله تعالى فى السراء والضراء وحين البأس. وكانوا بذلك القدوات الحسنة للمؤمنين فى كل العصور، وعلى امتداد الدهور.

والقول بعصمة الأئمة كما يقول الشيعة الاثنا عشرية دعوة إلى «اتباع دعوة الأئمة المعصومين الذين لا يُسألون عن الدليل على خلاف ما كان عليه أئمة السُّنة من تحريم اتباع أحد لذاته فى الدين بعد النبى محمد المعصوم الذى لا معصوم بعده ﷺ»[2]

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى؛ جـ٣ ص ٥٣ - ٥٥ بتصرف

(٢) تفسير المنار؛ سورة يونس؛ الآية رقم ١٠؛ جـ١١ص٢٠٨

● دفاع الإمامية عن عقيدة العصمة

ودافع الشيعة الامامية عن صحة اعتقادهم بعصمة آل البيت وعصمة الأنبياء والأولياء . فقال الإمام الرضا رضى الله عنه عن عقيدة العصمة فى قصة زواج النبى صلى الله عليه وسلم وآله من زينب بنت جحش رضى الله عنها إن زينب كانت زوجة لزيد بن حارثة ، وقد عَرَّف الله نبيَّه أنها ستكون من أزواجه ، فأخْفَى النبى ذلك خشية أن يقول المنافقون إن محمداً يَدَّعى أن امرأة على ذمة رجل آخر ستكون زوجته ! فهذا عيب كبير فى معايير ذلك المجتمع ، وهو يتضمن أن النبى سيرتب الأمور لكى يضطر زيد إلى طلاقها لكى يتزوجها هو ! وهذه لازمة مرفوضة رفضاً باتاً عند جميع الفرق المسلمة .

وهنا تثور التساؤلات : متى عَّرف الله تعالى نبيه أن زينب ستكون من زوجاته ؟ أَقَبْل زواجها من زيد أم بعدَه ؟ ومن غير المحتمل أن يكون الله قد أخبر النبى بذلك قبل زواجها من زيد ، لأنها تزوجت زيداً بمباركة النبى ورضاه . فلما اشتد النزاع بينهما فَرَّق النبى بينهما . ثم أمر الله تعالى نبيه بالزواج منها لأنهاء تقليد جاهلى قديم يحرم زواج الرجل من امرأة ولده بالتبنى . ولم يكن يجرؤ أحد على ذلك غير النبى الكريم ﷺ بعد أن حَرَّم الله التبنى وقال ﴿ **ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ** ﴾ [الأحزاب : ٥] فأصبح « زيد بن محمد » « زيداً بن حارثه » ثم جاء الأمر بزواج النبى من زينب ﴿ **فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا** ﴾ [الأحزاب : ٣٧] (١)

فبعد كل الشروح الشيعية يظل اللوم الإلهى أو العتاب الإلهى قائماً ، وإن اختلف النظر إلى سببه ، وهل هو تقولات المنافقين أو العرب المشركين عامة ، فى تفسير معنى « الناس » الذين خشيهم النبى صلى الله عليه وسلم وآله .

---

(١) تفسير القرطبى ؛ المجلد رقم ٦ ص ٥٢٧١ – ٥٢٧٣